

القسم الثانى

تاريخ جزيرة صقلية من أقدم عصورها

الى انهيار السلطة الفاشيستية

الفينيقيون : منذ نحو الالف سنة قبل الميلاد توطن شعب الصيف-ول الجزيرة التى اشتقت من اسمه اسمها واسس ذلك الشعب المدن والدساكر واصلح الارض ولم يقم اى تصادم بينه وبين رواد المدينة الشرقية بحارة فنيقيا من بنى كنعان وقد كانوا يومئذ يجوبون عباب البحار ويؤسسون على سواحلها قرى تجارية كانوا يدعونها « المصارف » وبواسطتها كانت اشعة انوار المدينة الشرقية تبدد ظلمات الوحشية الغريبة والمبادلات التجارية والتعارف والتثايف حول تبادل المصالح لأحسن وسيلة لارتباط الشعوب بعضها ببعض وتأخيها فى سبيل التقدم الانسانى، شتان بينها وبين وسائل الغزو بواسطة الحديد والنار ؛ واخضاع الشعوب الضعيفة تحت نيران الاستعمار .

سلك الفينيقيون هناك مسلكهم فى بقية الحوض الغربى من البحر المتوسط فأسسوا بالجزيرة مراكزهم التجارية العمرانية ومنها « معطية » و« بانورم » بالرمة « وسلديس » .

الاغريق : وانبثق بعد ذلك من الشرق نور جديد بسط على صقلية شعاعه مع رجال الاغريق ذوى المدينة الزاهية الزاهرة فاستوطنت جموع كثيرة منهم شرقي الجزيرة فعمروها وأسسوا بها مدنا شهيرة مثل سرقوسة سنة ٧٣٤ ق م وقطانية ، خمسة اعوام بعد ذلك ومسينا حوالى ذلك التاريخ واستمر نفوذ اليونانيين الاغريق فى تقدم وازدياد نحو مائتي عام الى سنة ٥٣٦ ق م .

تدخل قرطاجنة : تضاعل شان الاغريق حيث كانت بلادهم ميداناً للانقسام والنضال حول الحكم والمناصب و ما كانوا يتورعون عن ايقاد نيران الحرب الاهلية في ذلك السبيل ؛ وكانت يومئذ مدينة قرطاجنة الافريقية الكنعانية تسطم بلساً لامعاً في سماء العالم القديم ؛ وكانت راسخة القدم في بلاد الشمال الافريقي تربط بين مختلف ارجائه برباط المصلحة والمدنية ، ولقد مدت ابصارها الشرهة نحو جزيرة صقلية ورامت الاستحواذ عليها ، اما تمهيداً لوثبة اخرى من ورائها نحو القارة الاروبية واما أنقاء لشر غارة يشنها عليها من يثبت قدمه بتلك الناحية ؛ وقد كانت قرطاجنة احتلت قبل ذلك جزيرتي سردينيا وكورسكا .

ولقد كان النزاع يومئذ مستفحماً بين الاغريق و الفينيقيين في صقلية واصبح الغصران يتنازعان هنالك البقاء . فاغتنمت قرطاجنة الفرصة وجهزت اسطولها بحمل جنداً عتيداً تحت قيادة السبط « مالى » . وكانت مهمته الظاهرة انجاد الفينيقيين في الجزيرة ونصرتهم ضد الاغريق ؛ ومهمته الخفية نصب سلطان قرطاجنة على البلاد لكن السبط مالى اخفق في انجاز مهمته . وتغلب عليه اغريق الجزيرة فاخلى ما احتله من البلاد ورجع خائباً الى قرطاجنة .

لم تكن الخيبات العسكرية تثني عزم القرطاجنيين عن مداومة المكفاح والنضال ، فاخذوا يستعدون لاعادة الكرة وارادوا قبل ذلك ان يامنوا شر تدخل اجنبي في الامر ؛ وارادوا ان يجعلوا الاغريق في عزلة سياسية وحربية ، حتى لا يجدوا معيناً لهم في البحر المتوسط ، فتماقدت قرطاجنة مع عدو الاغريق ، ملك القرص اكسيريس وتحالفت في نفس الوقت مع الرومانيين الذين لم يتألق نجمهم بعد في سماء البحر المتوسط ؛ ووضع القرطاجنيون بهذه الصفة جنوب البلاد الطليانية ضمن منطقة نفوذهم .

جهزت قرطاجنة حملتها الثانية تحت امرة عمكرض ابن ماغون البرقي

وسيرته نحو صقلية فتصادم تحت جدران سرقوسة مع الاغريق وما كان نصيب هذه الحملة الا ك نصيب الحملة الاولى : خذلان وفشل ذريع ؛ اما القائد فقتل واما الجند فاسر واما الاسطول فتدمر .

وقد كانت بلاد الاغريق يومئذ قد وثبت وثبة جريئة واستعادت قواها ومنعتها فلم يصكتف الاغريق بدحر القرطاجنيين بصقلية ، بل تغلبوا مع ذلك وفي نفس الوقت ، على الفرس اعدائهم الاقدمين في وقعة سلامين الشهيرة سنة ٤٨٠ ق م .

طلبت قرطاجنة يومئذ الصلح فنالت به لا ي من الملك جيلون الاغريقي الصقلي وكان من جملة شروط الغالب على المغلوب ان التزمت قرطاجنة بالعدول عن تضحية الصبيان بين يدي الصنم ملك . . .

ان كانت الخيبة اليمة فقد كانت العزيمة عظيمة ؛ وما عثم القرطاجنيون ان جهزوا حملة ثالثة تحت امرة حنبعل بن عمكرض (هو غير حنبعل الشهير بطل الحرب البونيقية) فساروا اليها بقوة وعزم يحدوهم الامل وتدفع بهم نحو الامام عاطفة الانتقام والاخذ بالثار فنزل حنبعل الجزيرة ، واخترعها بجيوشه الجرارة ونكل برجال الاغريق تنكلا ذريعا ، فذبح في المكان الذي قتل فيه ابوه عمكرض ثلاثة الاف من مقاتلتهم الماسويين ؛ ووطد بعد ذلك سلطانه على نحو اثنتي عشرة الف من الجزيرة ، وقال الفية ون المتوطنون هنالك فوزا عظيما . ثم انعقد الصلح بين القرطاجنيين وبين الطاغية دينس اليوناني ، ملك سرقوسة ؛ نال بواسطته كل من الفريقين الاستقلال بالحكم في نصف من الجزيرة .

وما كان الصلح من دينس الا خدعة وكسبا للوقت ؛ فما كانت تنقضي مدته المعينة ، حتى كان قد اكمل عدته واحسن عدته ؛ وشنها على القرطاجنيين والفيقيين حربا شعواء ، دحرتهم آخر الامر فحطم مدنهم وخرّب

معالمهم ؟ واسر رجالهم ونساءهم فبيعوا رقيقا .

حاول السبط هملقون محاولة جريئة لالاخذ بالثار ؛ واقاذا ما يمكن انقاذه فحاصر سرقوسة فعلا واحتلها ودحر الاغريق في عدة مواطن و ~~كاد~~ يستتب له الامر نهائيا لولا ان مددا عظيما جاء الاغريق من بلاد اليونان ام الوطن فدارت الدائرة من جديد على رجال قرطاجنة وانقهر السبط — هملقون — مقلعا عن الاكل وهذه اول مرة في التاريخ على ما اعلم نرى فيها مثالا لاغتصاب الجوع الذي اشهر فيما بعد في تاريخنا الحديث باغتصاب الزعيم الارلاندى « ماكسويلى » شيخ مدينة يورك وباغتصابات زعيم الهند « غاندى » المتوالية .

وخسرت قرطاجنة يومئذ سنة ٣٩٥ ق م كامل ما امتلكته في الجزيرة لفائدة الاغريق .

اكن المحاولة الخامسة لم تبلى طويلا ؛ فجهزت قرطاجنة القائد « ماغون » وارسلته صحبة جند ضخمة واسطول عتيده فامتلك الكثير من السواحل الصقلية وثبتت هناك اقدام القرطاجنيين الذين اتصلوا بالقائدين صدر بل وعمل كرض مددا ؛ والقت قرطاجنة يومئذ في الميدان الصقلى احسن ما كان لديها من جند وعتاد . واستمرت الحرب طويلا في الجزيرة بين قرطاجنة وسرقوسة الى سنة ٢٦٤ ق م اذ استتب لهم الامر بكامل الجزيرة لا بواسطة الحرب والقتال بل بواسطة انقلاب سياسي خطير حيث ان الملك الاغريقى « هبارون » اذراى نفوذ روما يقوى ويشدد ويتفاقم امره دخل تحت حماية قرطاجنة وتعاقد معها على دحر كل طارق جديد .

روما وقرطاجنة : كانت رومة حقا قد نشأت يومئذ نشأة قوية واشتد ساعدها واخذت هي الاخرى ترمى بانظارها وراء البحار ؛ فرات مثلما رات قرطاجنة

من قبل ان امتلاك صقلية ؛ حجرة اساسية في بلوغ امانها في التوسع والاستعمار وان السلطان الروماني لن يتحقق في البحر المتوسط ، ما لم ينصب اعلامه من قبل فوق اديم الارض الصقلية ؛ ومن ثم شجرت الحروب ابونيقية بين روما وقرطاجنة فدمت ١١٨ عام ؛ في ثلاث دفعات متوالية ؛ ابتدأت بصقلية سنة ٢٦٤ وانتهت بتحطيم قرطاجنة واعدامها من عالم الوجود ، بصفة وحشية ، سنة ١٤٦ ق م .

كان السبب الظاهري للحرب البونيقية الاولى ؛ وهي الوحيدة التي يهنا امرها في جزيرة صقلية ، هو ان جماعة من سكان ايطاليا كانوا يحتلون مدينة مسينا المواجهة لبلادهم ؛ فكانت — حسب التعبير العسكري الحديث — راس جسر مدمر الطليانيون في الارض الصقلية ؛ واذا كانت روما قد شبت وترعرعت واصبحت تعلم بالسيادة البحرية راي القرطاجنيون ؛ كما رأى حليفهم الاغريقى ملك سرقوسة ان بقاء الطليانيين بمسينا يوشك ان يكون خطرا يهدد الجزيرة بشر مستطير ؛ فجهز الحليفان حملة داهمت مسينا ؛ فاستنجد اهلها ببني جلدتهم الرومانيين وكان هؤلاء لا ينتظرون الا مثل هذه الاشارة ، فارسلوا عشرين الفا من خيرة رجالهم ؛ يقودهم القنصل ايوس كلوديوس نزلوا مرسى رجيو ؛ وارغموا القرطاجنيين على فك حصار مسينا واطردوهم عن ساحاتها فاعتصموا ببعض معاقلهم بعيدا عنها ؛ ثم لوى الرومانيون عنانهم نحو الملك الاغريقى هيارون فاضطروه للالتجاء الى معقله في سرقوسة ثم فاوضوه في نكث عهد القرطاجنيين وقد زاي رأي العين قوة شكيمة الرومانيين وحسن نظامهم واقتنع بان الخسران سيكون نصيب اعداء الامس وحلفاء الساعة فقلب لهم ظهر المجن واعلن بمخالفة رومة واخلص لها الولاء . وذلك سنة ٢٦٣ ق م ، ورجع القائد حنون القرطاجني لوطنه مذموما مدجورا فاتهم هناك بخيانة الوطن واعدم صلبا .

رات قرطاجنة يومئذ والحق مارات ، ان المسالة اصبحت تتعدى صقلية وان
الهدف الذي يرمي اليه الرومانيون هو سيادة البحر المتوسط ، وان الحرب ان
غادرت الارض الصقلية فلكي تحمل بويلاتها في الارض الافريقية . ومن اجل ذلك
رأت وجوب التضحية باعز عزيز في سبيل الاحتفاظ بتلك الجزيرة ؛ او على الاقل
بجعل الحرب منحصرة هنالك ، وقاية لقرطاجنة وارضاها الافريقية ؛ فجهزت من
اجل ذلك حملة جديدة ، بلغ عدد رجالها ٥٦ الف رجل ، نزلوا بمدينة اقريجننت ،
وتصادموا حولها مع جند الرومان تصادماً رهيباً ، وما اسنطاعوا صد رجال رومة
عن تلك المدينة ، فسقطت بين ايديهم ، وباع الرومانيون بيع الرقيق من بقي من اهلها
حياء ، وكانوا زهاء الخمسة والعشرين الفا .

وما كانت تلك خاتمة نكبات قرطاجنة بارض صقلية ، فان هذه الدولة التي
اظهرت بهذه المناسبة ثباتاً عز في التاريخ نظيره ، ارسلت القائد صدر بعل سنة ٢٥٠
ق . م ؛ لمحاولة استرجاع ما فقدته بصقلية ، ولأمداد معاقليها الباقية هنالك بالنجادات
اللامر ؛ فنال اول الامر فوزاً وجيزاً ، ثم دحره القائد الروماني مينيوس آخر
الامر وكسره شر كسرة ، وقتل من جنده اكثر من عشرين الف رجل ، ورجع
القائد المندحر لقرطاجنة حيث كان ينتظره الاعداء صلباً .

كانت تلك آخر عملية ذات اهمية قامت بها قرطاجنة هنالك ، وقد اعتقد
رجالها آخر الامر ، وعندما نضب معينهم ، ان صقلية قد افلتت من ايديهم نهائياً
وان لا قبل لهم بمقاومة الرومانيين ، فلم تكذب تحق المحاولات النهائية اليائسة التي
قام بها القائد عملكرض البرقي سنة ٢٤٢ ق . م ؛ حتى انسحبت قرطاجنة نهائياً من
تلك الجزيرة بعد تدخل واستيلاء داما ٢٧٤ عاماً ، وانتهى بذلك أمر الحرب
البونيقية الاولى .

ولقد كانت هذه الحرب اكبر اسباب انهيار قرطاجنة فيما بعد ، اذ فقدت

فيها تباغاً زهرة رجالها ، وخيرة قوادها واكثر معداتها ومذخراتها ؛ كما كانت هذه الحرب ايضا اول اشراق لبدر رومة الذي ازداد فيما بعد . طيلة قرون عديدة .
نمواً ولعاناً .

الحكم الروماني — اصبحت الجزيرة يومئذ من ممتلكات روما ، تابعة لها

في حياتها الادارية والاقتصادية ؛ واصبح تاريخها في ذلك العهد جزءاً من تاريخ الامبراطورية الرومانية عدة قرون ؛ شاركت فيها نمو الامبراطورية وصعودها اوج القمة ؛ وشاركت فيها انحدارها في مهاوي الانحطاط .

شاركت صقلية روما في حروبها الداخلية الفتاكة ، فناها من جراء ذلك خراب كبير ؛ وعلى الاخص بعد تلك الفتنة الوحشية الفظيعة ، فتنة اوكتافيوس وبومباي ؛ حيث خربت المعالم وحطمت المدن ، وعمت النكبة سائر اصقاع البلاد ، حتى اضطر امبراطور اغسطس لإعادة بناء مدنها وتعميرها من جديد بواسطة جموع من الرومان والافانين والعبيد .

وقد كان كبار المستعمرين الرومانيين يرسلون الى الجزيرة زرافات من العبيد يعملون هنالك كالانعام لفائدة السادة ، وكانوا يعاملون معاملة هي الوحشية بعينها رمت بهم الى احضان الثورة الغنيمة مراراً ؛ فكانت ثورات العبيد الفتاكة ضد سادتهم ، سنوات ١٣٩ و ١٠٤ ق . م و ٢٥٩ بعده ؛ من اكبر نكبات الجزيرة اثناء الاحتلال الروماني .

وعندما انقسمت الامبراطورية الرومانية شطرين : بيزنطية شرقية ، ورومانية غربية ؛ كانت صقلية من نصيب الرومانيين وناها ما نالهم في عصر الانحطاط والاضطراب ؛ من فتن في الداخل ؛ وتدهور في الاخلاق ، وانحطاط في النفوس واخيراً السقوط تحت ضربات الشماليين ؛ الذين كانوا يدعونهم يومئذ « الباربار » اي الوحشيين .

صقلية الرومية — عندما استقرت قدم الوندال بالشمال الافريقي ؛ ونسفوا باعانة البربر في سنوات قليلة كل معالم الرومانين بهذه الارض مادية كانت او معنوية ؛ اصابتهم ممن سبقهم بقرطاجنة عدوى الفتح والتوسع ، فتوجهوا صوب صقلية ايام عاهلهم العظيم جنصريق ، واستحوذوا عليها دون عناء كبير واتخذوها مركزا لغزواتهم ضد ايطاليا وما حولها .

لكن ايام الونداليين لم تطل كثيرا هنالك ؛ حيث ان الروم البيزنطيين اعادوا الكرة عليها ، واستخلصها القائد بليزار من ايديهم نهائيا سنة ٥٣٠ هـ (١) ، واصبحت منذ ذلك العهد ، ولمدة ثلاثمائة سنة ، قطعة من الارض البيزنطية اصابها انهاءها ما اصاب بقية الارض الرومية ، وخاصة الشمال الافريقي ، من فتن واضطراب ، وفساد في الادارة ، وفتن ودسائس ؛ حيث اصبحت الرشوة هي القانون العام الذي يخضع له الموظفون واصحاب السلطة والنفوذ ؛ فما ترك الروم الجزيرة الا وهي اشبه شيء بالخراب البلقع ، وذلك سنة ٨٢٧ م .

صقلية الاسلامية — توطد سلطان المسلمين بالبلاد حسبما سيأتي تفصيله ، وتوالت على الجزيرة وفود العرب والبربر ؛ لفتح والسكنى والاستعمار ، فبنوا فيها القرى والدساكر ، وعمروا بساتينها واحبوا حقولها وأسسوا المدارس والمساجد وانشأوا بها صناعات كانت يومئذ مجهولة في اوربا ، وادخلوا فيها كما رأيت في القسم الجغرافي ؛ اشجار الزيتون والنخيل والليمون والبرتقال وقصب السكر ؛ ثم تركوها جنة يانعة ؛ حسبما سيمر بك في آخر الكتاب رغما عما كان يقع بينهم من

(١) في سنة ٥٧١ ازدان العالم بازدياد سيد البشر محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم بمكة المكرمة ؛ ايام حكم كسرى انوشروان بالفرس ، وحينما كان ابرهة ملك الحبشة ، صاحب الفيل ، يحاول فتح مكة لتعطيم الكعبة ، فدمره الله شر تدمير ، وللييت رب يحميه .

قتن واضطرابات ، ورغم الوقائع الحربية التي كانت مسترسلة بينهم وبين المسيحيين دون انقطاع .

ولقد حكم المسلمون صقلية ، غازين فاحين ممدنين ، مدة ٢٣٣ عاماً هجرية (٢٢٤ عاماً ميلادية) من سنة ٢١٧ الى ٤٥٠ هـ . ومن سنة ٨٣٢ الى سنة ١٠٥٦ م الا ان نفوذهم ، بقي عظيماً قوياً في الجزيرة ، بعد ان تقلص سلطانهم عنها ، فكانوا طيلة عهد النرمان ، هم الذين يديرون الملك ويدبرون شؤون السياسة ، ويعمرون قصور الامراء ودور العلم وبشيدون المعالم والمعاهد ؛ فكانوا يومئذ يشتركون في حكم الجزيرة اشتراكاً فعلياً ، حتى انه ليكاد يتقرر بان ازهى وازهر عصور المسلمين في صقلية انما هو العصر الذي عملوا فيه اعمالهم التمدينية الباهرة تحت سلطة امراء النرمان .

ولقد اتخذ اولئك الامراء الشماليون ، وكانوا حديثي عهد بالمدنية ، سيرة ملوك المسلمين ، فلبسوا لباسهم ، ونحلوا باخلاقهم ، وسكنوا مساكنهم ، واستعملوا في دواوينهم لغتهم العربية ، فكانت الدولة بؤمئذ دولة نرمانية اسلامية ، ودامت الحالة على ما ذكرنا سائرة لا محالة في طريق الضعف والانحطاط والتدلي طيلة ١٩٣ عاماً ؛ الى ان طغى سلطان التعصب الديني ، فاخرج الامبراطور افرديريك الالماني المسلمين عامة من الجزيرة وانزلهم بالسواحل الافريقية ؛ وبقيت منهم بقايا بالبلاد تنصرت او ماتت هما وكداً .

وهكذا أقام المسلمون من اهل الشمال الافريقي بالارض الصقلية بين حاكين ، ومشاركين في الحكم ، ومحكومين ٤٢٦ عاماً : تفصيلها بالتاريخ الهجري :

مدة الحكم الاسلامي (٢١٧ - ٤٥٠) ٢٣٣ سنة

مدة الحكم النرمانى (٤٥٠ - ٦٤٣) ١٩٣ سنة

النرمان — النرمان ، واسمهم مشتق من كلمة نور Nord اي الشمال

قوم انحدروا من اعالي اروبا ، وخاصة من قطري النرويج والدانمارك ، نحو جنوب تلك القارة وشرقها ، فاغاروا خلال القرن التاسع الميلادي على بلاد الشرق الاربوي وكانت تلك الطائفة المغيرة منهم تدعى « روس » Rous فتوطنوا السهول حوالي نهر « دنيابر » وعمروا مدن سمولنسك وكييف وغيرها من شهيرات المدن التي سارت بذكرها الركبان خلال الحرب الاخيرة ؛ ثم توغلوا في الارض ميممين شطر الجنوب الشرقي مقتحمين امبراطورية بيزانطة ، حتى وقفوا تحت جدران القسطنطينية ، ثم رجعوا عنها خائبين ، وثبتت اقدامهم بالشرق الاربوي ، فاصبحت البلاد هنالك تدعى باسمهم « روسيا » .

ولقد كان لمقامهم بالغرب الاربوي ، ما كان لمقامهم بالشرق من اثر كبير ؛ فانهم كانوا يتدفقون نحو الغرب في جماعات متوالية ، قليلة العدد ، يركبون مراكب خفيفة سريعة ، يلقون مرساها عند مصب الانهر الفرنسية الكبرى ؛ وخاصة نهر السين ، وهنالك كانوا يطلقون لعواطفهم الوحشية العنان من نهب وسلب ، وتخریب معالم ، وهتك حرمان لا يراعون في مخلوق الا ولا ذمة ؛ وابتداء ذلك الخطب الويل حوالي سنة ٨٠٠ ، عندما كان الامبراطور شارلمان يتولى امر امبراطوريته الغربية ، وعندما كان ابراهيم بن الاغلب يؤسس في افريقيا دولته المستقلة .

واما ملك الانكليز الفريد الكبير ، فقد اوقف تيار هجرة النرمانين الى بلاده بواسطة معاهدة عقدها مع كهراثهم بذل في سبيل تحقيقها غالي الثمن ، واشترى بواسطتها راحة بلاد الانكليز الى حين .

اما شارل الاصلع ملك فرنسا ، فقد اخذ يحذو حذو الانكليز ، ويشترى بالثمن الفاحش مرة بعد اخرى ، انسحاب النرمانين من بلاده .

ولقد نقضوا مرة العهد ، وضيقوا على مدينة باريس الحصار ، فلم ير شارل

السمين ، ملك فرنسا يومئذ بدأ من بذل ثمن لانسحابهم لم يرو لنا التاريخ مثالا في حطته ودناؤه : سمح لهم مقابل فك الحصار عن باريس بنهب مقاطعة برغونيا الغنية الزاهرة ، ولا تسبل عما وقع هنالك من فظائع واهوال ووحشية تقشعر لذكرها الجلود (١) .

واخيراً تعاهد معهم نهائياً ملك فرنسا شارل البسيط ، فاقطعهم الناحية الشمالية الغربية بفرنسا ؛ على ضفاف نهر المانش ، وهي التي اتخذت منذ تلك الساعة اسمهم فاصبحت تدعى « نرمنديا » وهي من ازهر وابدع جهات فرنسا ، وفي مقابل ذلك اعترف اميرهم رولون بالتبعية لملك فرنسا ، فتأقلموا في البلاد وانتهى امر عدوانهم . الا ان اغرب غزواتهم وابعدها مدى واكبرها اثراً ؛ هي غزوتهم لجزيرة صقلية وغزوتهم بلاد الانكليز على يد غليوم الفاتح امير نرمنديا ، المولود بمدينة فاليز من مدنها التي لا تزال قائمة الجدران ؛ فانه قد اغار بجموعه على بلاد الانكليز

(١) كان من نتائج اعمال الترممان بالبلاد الفرنسية ، ان انتظمت بها حياة « السادة » الاقطاعيين ؛ واصبح لهم النفوذ المطلق بالبلاد ؛ حيث ان عامة الشعب لم تكن قادرة على الدفاع عن نفسها ؛ فأخذ الاغنياء ينشئون القصور المحصنة ويحيطونها بالاسوار النيعة والخنادق العميقة ، وكلما تم بناء قصر ؛ امته جموع الشعب فسكنت حوله ، واحتمت به ، فكان سيد القصر يبذل حمايته لتلك الجموع ويقودها في الحرب مقابل طاعتها له واذعانها لأوامره ، وازدادت تلك الطاعة مع مرور الزمن حتى اصبحت عبودية مطلقة ؛ واصبح السيد يملك رقاب رعاياه ومتاعهم ومن جملة حقوقه الدخول على كل امرأة عند زفافها قبل زوجها ؛ وتفاقم نفوذ هؤلاء السادة ، حتى اصبحوا اشبه شيء بالملوك المستقلين ، ومنهم من نما سلطانه واستقل فعله وبتر علاقاته مع الملك ، وامتلات القرون الوسطى بفظائع ووحشية هؤلاء السادة المممج .

سنة ١٠٦٦ وقتل ملكها في موقعة هاستينغ التي كانت اعظم انتصار تحصل عليها
الترمان في تاريخهم ، فبايعه الانكاز ملكا عليهم في مدينة لندن ، واحاط عرشه
بسياج متين من الاشراف والاورداد وكبار الامراء ، فطبع بلاد الانكليز بطابعه
الخاص الذي لا يزال الى يومنا هذا موجوداً .

اثناء هذه الحوادث كان فريق آخر من الترممان في الجنوب الاربوي ؛ قد
وطدوا ملكهم على اقاضي ممتلكات الاغريق بالبلاد الطليانية الجنوبية ، وفي سنة
١٠٦١ اجتاز احد ملوكهم روجي (رجار) مضيق مسينا ، ووضع قدمه فوق
الارض الصقلية لمحاربة المسلمين والقضاء على ملكهم هنالك ، فنشبت بين الفريقين
حرب عوان استمرت ثلاثين سنة ، وانتهت عام ١٠٩٦ (١) بتعطيم آخر مقاومة

(١) من غرائب الصدف ، ان تاريخ انتهاء آخر مقاومة اسلامية بصقلية كان
تاريخ ابتداء تلك الحملة الشعواء الهائلة ، التي شنتها المسيحية على الاسلام ؛ والتي
تعرف بالحروب الصليبية . فقام المسيحيون في كامل البلاد الاربوية بمحاربتهم التعصب
الاعمى تحت تأثير بطرس الراهب ؛ والبابا اوريانوس الثاني ، وكانت نتيجة الحملة
الاولى من هذه الحرب الوحشية ، احتلال بيت المقدس سنة ١٠٩٩ ؛ وكان
المسلمون قد التجأوا الى مسجدها الاعظم عندما اندحر جيشهم المؤلف من اخلاط
الترك والعرب ، فافتحم الصليبيون المسجد ، وذبحوا فيه وفيما حواليه سبعين الفاً
من المسلمين ، ويقول التاريخ ان الدماء كانت تسيل يومئذ كلالودية بين الازقة
والطرق . وقد استرجع البطل الاسلامي صلاح الدين الايوبي بيت المقدس من
الصليبيين سنة ١١٨٧ ؛ واندحر ملك فرنسا لويز التاسع تحت جدران قرطاجنة .
وتحت ضربات المستنصر بالله الحفصي سنة ١٢٧٠ ، وسنة ١٢٩١ سقطت آخر
معاقل النصارى في بلاد الشام بايدي المسلمين ، وبذلك انتهت المعامع الصليبية التي
اطخت ارض الشرق بالدماء ما يقرب من مائتي عام في ثمانية حملات .

حرية اسلامية ؛ وقد كان حينئذ الامير روبر ، شقيق الملك رجار ؛ قد مد سلطانه في ايطاليا شمالا حتى مدينة نابولي .

تولي الملك في صقلية سنة ١١٠١ ، الملك رجار الثاني الحكيم ، وكان في اعماله وتصرفاته ملكا اسلاميا ، نالت الجزيرة في عهده اوج عزها ومنتهى سؤودها ، وقال من البابا سنة ١١٣٠ لقب « ملك الصقليتين » .

مملكة الصقليتين — كانت هذه المملكة تشمل صقلية ، وجنوب البلاد الطليانية الى شمالي مدينة نابولي ، ولقد فقدت صقلية بتأسيس هذه المملكة كيانها الذاتي ، واصبح تاريخها مرتبطا بتاريخ البلاد الطليانية .

لقد كان ازهر عصر من عصور هذه المملكة الفتية الناشئة هو عصر الملك رجار الثاني الآنف الذكر ، وكان قد وطد دعائم ملكه على كواهل المسلمين وعلى سواعدهم وأسس بواسطتهم المدارس الكثيرة العالية التي بثت علوم المسلمين في كل انحاء ايطاليا ، وبقية البلاد الاروية وكانت عن حق اساس النهضة الاروية الحديثة الحكم الجرمانى — لكن صقلية النورمانية الاسلامية سقطت سنة ١١٩٤ تحت

سيطرة اباطرة المانيا من عائلة السواب الجرمانية واصبحت قسماً من تلك الامبراطورية التي تخضع عن كره منها لسلطان الجرمانيين . ومن اشهر اباطرة هذه الدولة افريدريك الثاني ، فقد اعاد تنظيم الدولة وأسس لها مؤسسات حديثة جريئة ، فجعل منها اهم دولة اوروبية في عصره (١٢٢٢ - ١٢٥٠) وكان بلاطه الملكي في بالرمة اشهر بلاط في بلاد اوروبا ، وقد عمر الدولة مدارس ومعالم ، واختط المدن والقرى واكثر العمران ، وكان ميالا للعلوم والفنون والآداب ؛ وسيأتيك شيء من تفصيل حياته الفرية .

اخراج المسلمين — الا انه الى جانب ذلك ، جنى جنابة على صقلية قاست

— ولا تزال تقاسي — من جرائها الامرين ؛ ذلك انه اراد ان يوحدھا في المسيحية ؛ وان يخرج منها الطائفة الاسلامية القليلة التي بقيت بها ، فاركب سائر المسلمين مراكب النرمان ؛ واجتاز بهم الى الارض الافريقية ؛ ففقدت البلاد بذلك اذكى عناصرھا واشدهم عملاً واكثرهم مدنية ؛ واكبر دلائل على ذلك ، هــ وان الدولة اخذت في الانحطاط والتدلي عندما تم ذلك الحادث الجلل ؛ واخذت اوصالھا تنفكك وتطاول الادعاء عليها فانهار بنيانها ، واغتتم البابا كليمون الرابع فرصة ذلك الانهيار فافتك الدولة من ايدي النرمان والشواب ؛ ونصب على مملكة الصقليتين الامير الفرنسي شارل دانجو شقيق الملك لويز التاسع المعروف باسم القديس لويز الذي حارب المستنصر بالله الحفصي في الحملة الصليبية واهلكه الطاعون تحت جدران قرطاجنة .

وانه لمن غرائب الاقدار ، ان دولة النرمانيين ما عاشت في صقلية ، الا ما دامت معتمدة على جماعات المسلمين الذين افكت البلاد منهم ؛ فلما اخرجتهم من البلاد انهار ملكها ودالت دولتها .

مذابح صقلية — كان عهد الفرنسيين بمعاكبة الصقليتين عهداً ثقیلاً الظل غير

مرغوب فيه . فالملك شارل ابتداء امره جاهلاً عادات البلاد وتقاليدھا ، فخرج احساس القوم ، واثقل الضرائب بصفة فاحشة واخذ يستحوذ ظلماً وعدواناً على املاك الرعايا ويوزعها على رفقاءه الفرنسيين ، فكانت نتائج كل ذلك ان عمداھل المملكة الى السلاح ؛ وقاموا ثائرين في وجه الطاغية الظالم وانصاره ، وتلك الثورة تعرف في التاريخ باسم « صلاة العصر الصقليه » (« Vepres Sicilienne ») ذلك

لأنها انفجرت يوم عيد الفصح في سنة ١٢٨٢^(١) وكانت العلامة المتفق عليها بين
الذائرين هي قبر نواقيس الكنائس ايذاناً بصلاة العصر المسيحية ؛ فأنقض
الصقليون على الافرنسيين وقتلهم حيثما تقفون ؛ وعلى الاخص في مدينته بالرمة
حيث لم ينج من الفرنسيين الا فارسان اثنان ؛ وكانت مذبحة من افظع واقسى ما
رواه لنا التاريخ . وكان الزعيم يوحنا دى ابروتشيدا هو الذى تولى كبر التورة
واشرف على تنظيمها . واصبحت كلمة « صلاة العصر الصقلية » تطلق فى الادب
على كل مؤامرة تنتهى بمذبحة عامة .

دام الاضطراب بعد ذلك في سائر جهات الجزيرة وعم بها الخراب والدمار
واستنجد الصقليون بعائلة ارغون الحاكمة فى بلاد الشرق الاسباني ، فانجدتهم ضد
الفرنسيين ، الذين ثبتوا فى الجنوب الايطالي ، وكان خلفاء الملك شارل الفرنسي
يتخبطون فى دياجير الدسائس والفتن والاضطراب ، وذاقت صقلية بعض الراحة
تحت حكم الاسبانيين .

الحكم الاسباني — ورث ملوك قشتالة الاسبانيون ، عائلة ارغون فيما
كانت تحكمه من الارض ، وذلك اثر انقراضها ، فنصبوا سلطانهم على اديم الارض
الصقلية منذ سنة ١٤١٢ (٢) ثم استتب لهم الامر بالجنوب الايطالي ، فمحقوا خيال

(١) سنة ١٢٩٩ ، استقل الامير عثمان التركي فى قطعة من بلاد آسيا الصغرى
وانشأ على انقاض المملكة السجلقية الواهية ، السلطنة العثمانية الكبرى التى شغلت
كامل التاريخ الحديث الى سنة ١٩٢٢ .

(٢) فى هذه السنة اعاد السلطان محمد الاول العثماني بقاء السلطنة العثمانية بعد
ان هداركانها الطاغية التتري تيمور لك ، فى وقعة اقرة الشهيرة سنة ١٤٠٢ ؛
حيث سقط المجاهد العظيم بايزيد الاول اسيراً ، وتنازع اولاده الامر بعده مدة
عشرة اعوام .

الحكم الفرنسي فيه ؛ واعادوا تأسيس مملكة الصقليتين كما كانت اول مرة ، (١) وكان الفرنسيون يوالون محاولاتهم وتدخلهم مفسدين على البلاد راحتها ، فعادت الفتن والاضطرابات من جديد ولطخت الدماء الارض ، ودام ذلك الفساد نحواً من تسعين سنة ، سادت فيها الظلمات ارض الجزيرة واندحت منها معالم المدينة التي شاهدها المسلمون هنالك والترمانيون .

ما صفا الجو للحكام الاسبانيين في مملكة الصقليتين ، وما قضوا على آثار الاضطراب القديم الا حوالي سنة ١٥٠٣ ، ودام ذلك الحال في صفونسي خلال مائتي عام ؛ اخفقت اثناءها دولة النمسا في محاولة نصب سلطانها على الجزيرة ، وما كانت ايام الحكم الاسباني الا ايام ظلمات لم يقم اثناءها اي اصلاح رغم بعض محاولات فاشلة حاولها بعض ملوك البربون .

الجمهورية — انشق فجر الثورة الكبرى سنة ١٧٨٩ ، فالتهمت نيران الافكار

الجديدة ؛ وسرى تيارها في مختلف البلاد ، وهب جماعة من الصقليين تحت زعامة شامبيوني ، شيخ مدينة نابولي ، واعلنوا اعتناقهم تلك المبادئ السامية والخلابة ، مبادئ اعلان حقوق الانسان ، والتساوي بين عامة البشر ؛ وان لا حكم في بلاد الا للامة ؛ ثم نادوا بتأسيس الجمهورية الشعبية الحرة .

انما حركة الرجعيين كانت قوية عنيفة ؛ اذ جمع رجال الطغيان من رهبان

(١) خلال هذه الحوادث في ٢٩ من شهر مابة سنة ١٤٥٣ ، وقع الحادث

التاريخي الجسيم : استيلاء السلطان العثماني محمد الفاتح - قدس الله روحه - على مدينة القسطنطينية العظمى ، ودخل الاسلام اوروبا من جهة الشرق واستقر بها راسخاً متيناً الى يومنا هذا والى ان يرث الله الارض ومن عليها . وقد اتفق المؤرخون على اعتبار هذا الحادث نهاية القرون الوسطى وابتداء التاريخ المعاصر الحديث .

الكنائس وامراء الاقطاع ورؤساء الطوائف امرهم ضد حركة الشعب ؛ اذ ايقنوا ان الثورة الجمهورية تذهب باموالهم وبجواهرهم وبامتيازاتهم الفاضحة ، فتحزبوا زمراً واشتروا باءوالمهم جماعة من اللقيف والرعاع بخربون بيوتهم بايديهم ، وصادموا الجمهورية الفتية ففسفوها وارجعوا الملك فرديناند الى عرشه ، وبدأ من قبل الاميرال الانكليزي الشهير نلسون ، عدو فرنسا الالد ومحطم اسطول بونايرت ؛ فامعن الملك البطش بالجمهوريين وارهف سيف الطغيان فوق هاماتهم ، فاسقط منها ما يزيد عن العشرة آلاف رامس وسجن منهم نحو الثلاثين الفا ونفى من الاوض حوالي السبعة آلاف نسمة .

بونايرت — تدخل نابليون بونايرت في المسألة الصقلية الطليانية ؛ وكاد يصبح يومئذ صاحب الحكم المطلق في الغرب الاروبي ؛ فاعلن خلع العائلة الاسبانية التي لم تبقى بين يدها سوى صقلية وحدها ، ونصب شقيقه جوزاف ملكا على دولة نابولي ؛ ولقد حاول ملك نابولي الجديد الاجتياز الى صقلية ونصب سلطانه عليها الا ان الاسبانيين دحروه عند كل محاولة ؛ فكانت مملكة نابولي تحت امرة بونايرت تزدهر وتنمو ، وتتفشى فيها افكار الثورة الفرنسية بينما كانت بلاد صقلية تحت امرة الاسبان خاضعة لسلطان الضلال .

لكن ايام جوزاف بونايرت لم تدم بمملكة نابولي طويلا ، فاندحار شقيقه نابليون وانسحابه مرغماً من ميدان السياسة الاروبية قد جعل عرشه واهي الاركان وما اغنت عنه محاولة استمالة الحلفاء ولا الاستنجاد بالنمساويين شيئاً ؛ ونادي بتوحيد الطليانيين تحت زعامته فذهبت جهوده ادراج الرياح وانتهى امره بان اعدم رميا بالرصاص سنة ١٨١٥ (١) فاجتاز فردناند ملك صقلية الى الارض

(١) كان السلطان محمود الثاني العثماني يقاسي ازمة عنيفة من جراء الثورة الوهاية ببلاد العرب ، التي اخدها بشدة طوسون بن محمد علي والي مصر (سنة

الطليانية واعاد « مملكة الصقليتين » سيرتها الاولى ، وأرجع لأصحاب الكنيسة ورجال الاقطاع كل حقوقهم القديمة .

انما الشعب كان قد افاق من غفلته وتشبع بالافكار الحديثة ، وقد تركت فكرة الجمهورية في نفسه اثرأ فسادت جمعية « الكاربوناري » اي الفحامين السرية واخذت تفتك بالظالمين وتبطش بالمتجبرين ؛ وكانت نتيجة هذه الحركة ان ارغم الملك فرديناند سنة ١٨٢٠ على اعلان الدستور ، واجتمع البرلمان الشعبي لأول مرة في مدينة نابولي .

عهد الظلمات — اغتتم الملك الطاغية فرصة انعقاد مؤتمر لايباخ ؛ فخرج

من مملكته وذهب يستنجد دولة النمسا ضد رجال الحرية من قومه الذين ارغموه مكرها على اعلان الدستور ؛ وكانت امبراطورية النمسا مهد الرجعية ومعتقل المستبدين فامدته بجند عتيد دخل على رأسه محاربا جنود الحرية فدحرم ؛ واعلن حكم الاطلاق من جديد وارسل الى الموت والى التعذيب وبطون السفن للتجذيف آلافا مؤلفة من الرجال الاحرار ؛ ودامت الحالة بثيسة دامية طيلة ايام هذا الطاغية السافل وايام ابنه الذي خلفه في الحكم فرانسوا الاول (١٨٢٥ — ١٨٣٠) (١)

(١٨١٣) ؛ ثم ثورة بلاد البانيا . وقد حاول السلطان ادخال الاصلاحات الحديثة لبلاد السلطنة ؛ واعدم فرق الانكشارية الطاغية ، وانشأ الجند الحديث ؛ الا ان ثورة محمد علي باشا في مصر واقتحامه بلاد السلطنة حتى قونية ؛ وحرب اليونان وتحزب فرنسا وانكلترا وروسيا ضد تركيا ، وتخریب الاسطول الاسلامي في معركة نوارين (١٨٢٧) قد جعلت السلطان يخفق في سائر اعماله ؛ واخذ تدهور السلطنة العثمانية يتفاقم امره تحت معاول اوروبا وبمساعدة سائر العناصر المسيحية في البلاد .

(١) كان يتولى ملك فرنسا الطاغية الظالم شارل العاشر ؛ فامعن في خنق الحرية

وكذلك ايام فرديناند الثاني بن فرنسوا الاول ، اذ سار على غرار ابيه وجده في محاربة الحرية والاحرار وبطش بطش جبار بمحاولة دستورية قام بها رجال صقلية سنة ١٨٣١-١٨٣٧ ؛ فقمع حركتهم وشتت شملهم .

انما . هل يلد هذا الضغط العنيف المستمر سوى الانفجار الهائل الداوي ؟ كانت نتيجة هذا الطغيان الجائر ان ثار اهل صقلية ثورة عنيفة منظمة هائلة سنة ١٨٤٨ (١) وعمت تلك الثورة سائر جهات الجزيرة ، واعلنت خلع الملوك الاسبانيين واستمرت الحرب سجالا ؛ وفضاعتها متوالية ؛ وخراباتها عامة الى ان توطد لامد قصير سلطان الملك الظالم .

غاريبالدي — ما مآل الظالمين الا السقوط والانهيار ، فان رجال الثورة الاحرار ؛ هبوا من جديد يحدوهم الامل في نفس قلاع الاستبداد ؛ ويستشهد بين ايديهم قوم ذاقوا نير الجور ، وفضاعة الاستعباد ومرارة التنكيل والاضطهاد . وضيق على الناس حتى اخذت بوادر الثورة تظهر ، فاراد ان يشغلهم بحرب خارجية عله بواسطة انتصار حربي يستطيع الثبات ؛ فارسل جنداً وعمارة قويتين هاجمتا واحتلتا مدينة الجزائر (١٤ جوان عام ١٨٣٠) بعد مقاومة عنيفة . لكن ذلك النصر لم يغرن عنه شيئاً ، وثار الشعب الطالب للحرية ثورة عنيفة في ثلاثة ايام يدعوها التاريخ « الثلاثة الماجدة » وذلك بعد اربعين يوماً من احتلال الجزائر ؛ واضطر الملك الطاغية للتنازل عن العرش .

(١) في ٢٤ فيفري من هذه السنة ؛ اسقط الجمهوريون والاحرار الفرنسيون آخر ملك من ملوك فرنسا ؛ لويز فيليب ، واسسوا الجمهورية الثانية التي ما عتمت ان اصبحت « الامبراطورية الثانية » حيث اعلن رئيس الجمهورية ، نظراً لخلافات الامة وكثرة شقاقها ارجاع امبراطورية نابوليون ؛ واطلق على نفسه اسم نابوليون الثالث

ولقد كان على رأس الثائرين هذه المرة زعيم له صفات تؤهله لقيادة الشعب نحو الاحراز على حقوقه ، هو غاريبا لدي الشهير ، فدحر الثائرون الاحرار جنود الملك فرنسوا الثاني حتى الجأوه للفرار صعبة آله وذويه .

وكانت ايطاليا يومئذ قد وحدت صفوفها وجمعت كلمتها تحت امره الملك فيكتور عمانويل الاول ؛ واصبحت بفضل سياسيتها الاكبر « كافور » دولة فتية فامتد الثوار الغاريبا لديين بصقلية وساعدتهم على التخلص من الطاغية ، وبشت في البلاد دعاية نشيطة في سبيل الانضمام للوحدة الطليانية ، ففي اكتوبر سنة ١٨٦١ ، اى بعد انهيار الملك فرانسوا بنحو الثمانية اشهر ، وقسم في صقلية استفتاء شعبي كانت نتيجته اعلان صقلية ارادتها في الانضمام للوحدة الطليانية .

الحكم الطليانى — انها لم تكن صقلية سعيدة الحظ في وقت من الاوقات وهي قابعة تحت السيادة الطليانية الجديدة . فالضرائب الثقيلة والاثاوات الباهظة حطمت جهود الشعب ، واضطرته لاعلان الثورة مراراً ، وخاصة سنة ١٨٩٣ ، حيث هاجم الثوار مرا كز جمع الضرائب واوقدوا فيها النيران ؛ ثم نكلت بهم الحكومة الطليانية تنكيلا ذريعا ، وغدت صقلية ولاية من ولايات ايطاليا يخيم عليها الجهل كما يخيم على ولايات كلابرا وبلاد الجنوب الطلياني ؛ وضافت على الصقليين الارض بما رحبت ، فاجأوا الى الهجرة افواجا نحو البلاد التونسية او اميركا الجنوبية وغيرها من البلاد ، وشارك الصقليون الطليانيين في اعتدائهم الاول على بلاد النجاشي منليك امبراطور الحبشة ، ذلك الاعتداء الذى انتهى بكارثة « عدوة » المحجلة ؛ كما شاركوهم في اعتدائهم الاثيم على ولايتي طرابلس وبرقة العثمانيين وما وقع خلال ذلك من فظائع ومنكرات ، وشاركوهم في الحرب العامة الماضية وفي الاعتداء الثانى على بلاد الحبشة وفي الحرب الاثيمة الاخيرة .

انها لم تزل صقلية اثناء كل ذلك سواء خلال الحكم الدستوري او الحكم

الفاشيستي ، اي اصلاح جوهري يغير نظامها الاقتصادي الاقطاعي ويجعل للفلاح وللعامل فيها مركزاً اجتماعياً معقولاً بتمكين الاول من الارض وتثبيت الثاني في المصنع فكان الصقليون ينافون من الحكم الطلياني انما يعجزون عن خلع نيره والثورة في وجهه فعندما حطمت الجنود الحليفة قوى الالمان والطليان بالبلاد التونسية سنة ١٩٤٣ واجتازوا الى صقلية يقتفون فيها خطى الالمان والطليان ، لم يبد الصقليون ادنى مقاومة ، بل تقبلوا الفاتحين باذرع مفتوحة وصدور رحبة ؛ كأنهم املوا منهم اخراجهم من نير الاستبداد وربة الاستعباد. وما كاد ينهار الحكم الفاشيستي البغيض في ايطاليا حتى ابتداء رجال صقلية الاحرار يفكرون في مستقبل بلادهم ، ويرجون الاحراز على استقلال اداري واسع النطاق ان لم يتحصلوا على الاستقلال التام ، حتى يتمكنوا من فتح عهد جديد للجزيرة يعيد لها سالف مجدها وسوددها ايام المسلمين والبرمان .

ولعل حركتهم هذه سائرة في طريق النجاح ، اذا اعترفت الحكومة الطليانية لهم في اكتوبر ١٩٤٤ ، بامتيازات مركزية عديدة ؛ وقم توسيعها في العشرين من نوفمبر الموالي حتى اصبحت شبه استقلال داخلي .

وان حبنا للحرية يجعلنا نتمنى لهذا الشعب المسكين الذي ذاق مرارة الاضطهاد قروناً مديدة ، والذي تربطنا به ذكريات عديدة ، عهداً جديداً كله حرية وسعادة ومحق لنظام الاقطاع وسيطرة الكبراء وتحقيق لعزيز الآمال .

واننا بهذه المناسبة لنقول في كل صراحة وعلى رؤوس الملاء انه هيهات ان يستقر في العالم السلام وان تنتهي الشحناء والاحن والحروب بين الامم ما لم تنل سائر الشعوب حريتها التامة واستقلالها ، سواء قويتها وضعيفها كبيرها وصغيرها وان تغدو العلاقات بين الامم علاقات صداقة وتعاون في ميادين الثقافة والاقتصاد وتبادل المصالح لا علاقات فتح واستعمار وقضاء على حرية وكرامة وحياة الشعوب .